

## الفصل الأول

### عصير ابن رشد

#### ١ - الحركة العلمية

ولد ابن رشد في سنة ٥٢٠ هجرية بمدينة قرطبة وهي لا تزال في عصرها الذهبي الذي جعلها من عواصم الثقافة في التاريخ ، فلا تذكر أثينا ورومة والإسكندرية وبغداد إلا ذكرت معهن قرطبة في هذا الطراز .

وقد كان مولده بعد وفاة الحكم الثاني المستنصر بالله بنحو مئة وخمسين سنة (٣٦٦ هـ) وهو الخليفة الأموي الذي شغلته الثقافة قبل كل شاغل ، وجعل همه الأول أن ينافس بعاصمته عاصمة المشرق - بغداد - في عهد الخليفة المأمون ، فجمع فيها من الكتب والكتاب ما لم يجمع قبل ذلك في مدينة واحدة ، وكان هو أسبقهم إلى قراءة ما يجمعه من الأسفار النادرة من أقطار المشرق والمغرب . قال ابن خلدون ما خلاصته « . . . كان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال لشراؤها ، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني - وكان نسبه في بني أمية - وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العيين ، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرج إلى العراق ، كذلك فعل مع القاضي الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم وأمثال ذلك ، وجمع بداره الخلداني في صناعة النسخ والمهارة<sup>(١)</sup> في الضبط والإجادة في التجليد فأوعى<sup>(٢)</sup> من ذلك كله . واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله

(١) المهرة جمع ماهر : الحازق .

(٢) أوعى إيعاء الكلام أو الشيء حفظه وجمعه . وأوعى الزاد ونحوه : جمعه في الوعاء .

التنزيل الكريم : جمع فأوعى .

ولا من بعده ، إلا ما يذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء ، ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر . . . . » (١) .

وكان أعيان السراة (٢) والتجار يقتدون بالخلفاء في هذا الإقبال على اقتناء الكتب سواء منهم من يقرأ ومن لا يقرأ . قال الحضرمي : « أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أتقرب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع إلى المتأدي بالزيادة على » ، إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت له : يا هذا ! أرتي من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي ، قال : فأراني شخصاً عليه لباس رئاسة ، فدنوت منه وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه . إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . . . فقال لي : لست بفقيه ولا أدري ما فيه ، ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيت حسن الخط جيد التجليد أستحسنته ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير » (٣) .

وكان ابن رشد فخوراً بهذه الحصلة في موطنه ، فقال لزميله الفيلسوف ابن زهر يوماً وهما بحضرة المنصور بن عبد المؤمن من خلفاء دولة الموحدين : « ما أدري ما تقول ، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية . . » (٤) على أن هذين الفيلسوفين قد كانا في نفسيهما ، وفي آلهما ، آية الآيات على مبلغ ذلك العصر من ازدهار الثقافة ، فكان العلم وراثته في أسرة كل منهما يتعاقبه منها جيل بعد جيل ، وكان الذاكرون إذا ذكروهم ميزوا بينهم باسم الجلد والابن والحفيد ، فيقولون ابن رشد الجلد وابن رشد الابن وابن رشد الحفيد ، ويزيدون في أسرة ابن زهر فيقولون : ابن زهر الأصغر ، تمييزاً له من ابن زهر الحفيد .

( ١ ) « مقنة ابن خلدون » ، و « نفع الطيب » الجزء الأول .

( ٢ ) السراة جمع سري : صاحب الترف والمرورة والسخاء .

( ٣ ) « نفع الطيب » . الجزء الثاني .

( ٤ ) المصدر نفسه .

وأعجوبة الأعاجيب في نشأة ابن رشد أنه نشأ في دولة الموحدين وأنه تلقى التشجيع من أحد خلفائهم على الاشتغال بشرح أرسطو وتفسير موضوعات الفلسفة على العموم ، وكان موضع العجب أن يأتي هذا التشجيع من أناس اشتهروا بالتمزّت والحفاظة الشديدة على العلوم السلفية ، ومنهم من نُسب إليه أنه أحرق كتب الفلسفة والبحث في مذاهب المتكلمين .

روى صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب عن بعض الفقهاء قال : « سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرة : لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما ، فأخذ أبو بكر يثنى علىّ ويذكر بيتي وسلتي ، ويضم بفضلته إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدرى ، فكان أول ما فاتحنى به أمير المؤمنين بعد أن سألتني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال لي : ما رأيهم في السماء ؟ يعنى الفلاسفة . أقديمة هي أم حادثة ؟ . . . فأدركني الحياء والخوف ، فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة ، ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل ، ففهم أمير المؤمنين مني الرّوع والحياء ، فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألتني عنها ، ويذكر ما قاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم ، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت ، فعرف ما عندي من ذلك ، فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنية ومركب » .

واستطرد صاحب المعجب قائلاً : « أخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه قال : « استدعاني أبو بكر بن طفيل يوماً فقال لي : سمعت أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض أغراضه ، ويقول : لو وقع لهذا الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقرب مأخذها على الناس . فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل ، وإنني لأرجو أن تني به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة ، وما يمتنني من ذلك إلا ما تعلمه من كبر سنّي واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه ، قال أبو الوليد : فكان هذا الذي

حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطو طاليس» (١) .  
 ويزيد العجب عند مؤرخي هذا العصر - والمستشرقين منهم على الخصوص -  
 أن هذا الخليفة ينتمي إلى أسرة تدين بمذهب الظاهرية ، وهو المذهب الذي  
 يلتزم أصحابه ظاهر النصوص ويتحرجون من التأويل ، وقد توفى إمام هذا  
 المذهب في المغرب - ابن حزم - بعد منتصف القرن الخامس للهجرة ومذهبه  
 شائع وخلفاء الموحدين يرجحونه على سائر المذاهب ، ويعتبره المؤرخون المحدثون  
 قطب المذاهب الرجعية مع إحاطته بمذاهب الفلاسفة كما يعلم من كتابه عن  
 « الفصل في الملل والنحل » .

كان ابن حزم هذا آية أخرى من آيات العراقة في البيوتات العلمية ،  
 ولكنها الآية التي تمثل الثقافة من جانبها الآخر : جانب المحافظة « السلفية »  
 وكراهة التوسع في البدع الحديثة (٢) .

وكان ابن حزم هذا هو ابن حزم الابن « علي بن أحمد » وأبوه أحمد بن  
 سعيد ، وابنه الفضل أبو رافع ، وكلهم من مشاهير العلماء الثقات في المعارف  
 السلفية ، وإقبالهم على العلم لإقبال الصادق في طلبه المستغنى عن التكسب به ،  
 المجترى بالرأى على من يخالفه ، لأنه لا يخشى من الجرأة على رزقه . جرت بين  
 ابن حزم « الابن » وبين أفي الوليد الباجي مناظرة ، فقال الباجي : أنا أعظم  
 منك همة في طلب العلم لأنك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب ،  
 وطلبته وأنا أسهر بقتنديل بائت السوق . قال ابن حزم : هذا الكلام عليك  
 لا لك . لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ،  
 وأنا طلبته في حين ما تعلم وما ذكرت ، فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في  
 الدنيا والآخرة .

وقد جنت عليه ملاحظاته (٣) للعلماء والرؤساء وقلة مبالاته بغضب الغاضبين  
 فأحرقوا كتبه في إشبيلية ، وقال في ذلك :

( ١ ) العجب في تلخيص أخبار المغرب .

( ٢ ) البدع جمع بدعة : ما أحدث على غير مثال سابق . أو العقيدة أحدثت تخالفت الإيمان .

( ٣ ) الملاحاة : المنازعة .

فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذى

تضمّنه القرطاس ، بل هو فى صدرى

وقد كان تلميذه عبد المؤمن ، رأس أسرة الموحدين ، على مثل هذه الصرامة فى الخلق ، وهذا التّلدّ<sup>(١)</sup> فى الخصومة العلمية ، وهذا الشدة فى المحافظة على السّتن السلفية ، فوضع العجب أن تكون هذه الأسرة هى حامية الفلسفة والبدع العلمية ، وهى التى تشجع رجلا كابن رشد على شرح أرسطوطاليس .

• • • •

## ٢ - الحركة السياسية وتأثيرها فى الثقافة

ذلك فى الحق عجيب ، ولكنه العجب الذى مصدره الزينغ<sup>(٢)</sup> عن السبب ، وهو قريب ، بل جده قريب .

فقد أخصى المؤرخون ، ولا سيما المستشرقين ، علل الحركات الثقافية فى المغرب عامة غير علتها الحقيقية ، وهى بالإيجاز ظهور الدعوة الفاطمية فى إفريقيا الشمالية .

فظهر هذه الدعوة فى المغرب قد غير فيه كثيراً من وجهات الثقافة والسياسة ، وقد كان له الأثر المباشر فيها شغل الأوربيين بعد ذلك خلال القرون الوسطى من موضوعات الفلسفة الدينية ، وأهمها موضوعات النفس وخلودها وموضوعات العقل وعلاقته بالخلق والحالتى .

ولا يخفى أن الدعوة الفاطمية هى الدعوة الإسماعيلية بعينها ، فإن الفاطميين يُنسبون إلى فاطمة الزهراء أو يُنسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق تمييزاً لهم من سائر العلويين .

وقد كان الإسماعيليون يشتغلون بالفلسفة ويرجعون مذهب الأفلاطونية الحديثة ، وهو مذهب الفيلسوف أفلوطين Plotinus ( ٢٠٥ - ٢٧٠ م ) الذى ولد بإقليم أسيوط وألقى دروسه فى الإسكندرية ثم فى رومة . ومن أتباع

( ١ ) اللد : شدة الخصومة .

( ٢ ) الزينغ الميل .

الإسماعيليين الذين نشروا هذا المذهب إخوان الصفاء « أصحاب الرسائل المنسوبة إليهم ، ومنهم مسلم بن محمد الأندلسي الذي نقل مذهبهم إلى البلاد الأندلسية .

وقد شاع مذهب الإسماعيلية شرقاً وغرباً في العالم الإسلامي من جبال الأطلس إلى تخوم الهند وآسيا الوسطى ، وكان ابن سينا يقول : « وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين ، ويُعد من الإسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخي . وكانا ربما تذاكرا بينهما وأنا أسمع منهما وأدرك ما يقولانه ، وابتدعا يدعوانى أيضاً إليه ويجريان على لسانهما ذكر الفلسفة والهندسة (١) » .

لا جرم يتذاكر المستطلعون أحاديث هذا المذهب في إفريقية الشمالية كما تذاكروها في بخارى وعلى التخوم الهندية ، فقد جاء هذا المذهب إلى المغرب بقوة الدولة فوق قوة الدعوة ، وأصبح من شاغل أصحاب الدول أن يتعرفوه ويستطلعوا كنهه ويتبطنوا ما وراءه ، وبخاصة من كان كخلفاء الموحدين مهدداً لسultan الدولة الفاطمية معنياً بما يعلنونه ويسرونه من مذاهب السياسة أو الحكمة .

ولقد كان من آثار هذه الدعوة في المغرب عامة أن الخليفة الأموي بالأندلس عبد الرحمن الناصر ( ٣٠٠ - ٣٥٠ هجرية و ٩١٢ - ٩٦١ ميلادية ) تلقب بأمير المؤمنين بعد أن أطلق هذا اللقب على خلفاء الفاطميين ، وجاء خلفه الحكم الثاني الملقب بالمستنصر بالله فنافس خلفاء الفاطميين أشد المنافسة في الاشتغال بالفلسفة والعلوم وتقريب الحكماء والأدباء وأنقذ إلى إفريقية جيشاً قوياً لتوطيد سلطانه في مراکش وإعلان الدعوة باسمه على المنابر .

أما دولة الموحدين فقد كان الخطر عليهم من الدعوة الفاطمية - أو الدعوة الإسماعيلية بعبارة أخرى - أشد وأقرب ، فقابلوا دعوتهم بمثلها واجتهدوا في تعرف مذاهبهم الباطنية وكان رئيسهم « محمد بن تومرت » من قبيلة « مصمودة » البربرية ولكنه كان يتلقب بالمهدى وينتمي إلى آل البيت ويقول ابن خلكان - وهو ممن ينكرون نسب الفاطميين - إن ابن تومرت هو : « محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن ابن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن

- (١) « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » للوزير جمال الدين القفطي .

جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه «<sup>(١)</sup>» .

فقد برز الموحّدون إذن للفاطميين أو الإسماعيليين حتى في النسب والدعوة المهدية ، ولما اشتهر الإمام الغزالي في المشرق بإنكار الباطنية والرد عليها قصد إليه ابن تومرت وحضر عليه . وحكى - كما جاء في كتاب المعجب في أخبار المغرب - « أنه ذكر للغزالي ما فعل علي بن يوسف بن تاشفين من ملوك المرابطين بكتبه التي وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها ، وابن تومرت حاضر ذلك المجلس ، فقال الغزالي حين بلغه ذلك : ليذهبن عن قليل ملكه ، وليقتلن ولده ، وما أحسب المتولى لذلك إلا حاضراً مجلسنا » .

وقد تم لابن تومرت ما أنبأه به أستاذه الغزالي فأقام دولة الموحدين وندب لها صاحبه عبد المؤمن بن علي الكومي ( ٥٤ - ٥٥٨ هجرية و ١١٢٩ - ١١٦٢ م ميلادية ) ثم خلفه ابنه يوسف ثم خلفه ابنه يعقوب وتلقب بالمنصور بالله ( ٥٨٠ - ٥٩٥ هجرية و ١١٨٤ - ١١٩٨ ميلادية ) وهو الذي اقترح على ابن رشد تفسير كتب أرسطوطاليس وشرح مذاهب الفلسفة على الإجمال .

ويظهر التحدى والمفاخرة بين الموحدين والإسماعيليين في مقابلة كل دعوى إسماعيلية بمثلها من دعاوى ابن تومرت وخلفائه .

فقد انتسب إلى آل البيت كما ينتسبون ، وتلقب بالمهدى كما يتلقبون ، وقال عنه مريدوه إنه لم يكن أحد أعلم منه بأسرار النجوم وعلوم الجفر<sup>(٢)</sup> والتنجيم وهي العلوم التي اشتهر بها الإسماعيليون .

قال ابن خلكان : « إن محمد بن تومرت كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم أهل البيت ، وإنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى ، بمكان يسمى السوس ، وهو من ذرية رسول الله عليه وسلم ، يدعو إلى الله ويكون

( ١ ) وفيات الأعيان . الجزء الرابع : ترجمة رقم ٦٦٠ .

( ٢ ) علم الجفر ويسمى علم الحروف : هو علم يدعى أصحابه أنهم يعرفون به الحوادث إلى انقراض العالم . وإلى هذا الجفر أشار أبو العلاء المعرى بقوله من جملة آيات :

لقد عجبوا لأهل البيت لما أتاهم علمهم في مسك جفر  
ومرأة المنجم وهي صغرى أرته كل عامرة وقفر

مقامه ومدفنه بموضع من الغرب : هجاء اسمه ت ي م ل ل ، ورأى فيه أيضاً أن استقامة ذلك الأمر واستيلاء وتمكنه على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن ، ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة ، فأوقع الله سبحانه وتعالى في نفسه أنه القائم بأول الأمر ، وأن أوانه قد أزف ، فإكان ابن تومرت يمر بموضع إلا ويسأل عنه ، ولا يرى أحداً إلا أخذ اسمه وتفقّد حليته ، وكانت حلية عبد المؤمن معه ، فبينما هو في الطريق رأى شاباً قد بلغ أشده على الصفة التي معه ، فقال له وقد تجاوزته : ما اسمك يا شاب ؟ فقال : عبد المؤمن ؛ فرجع إليه وقال له : الله ! أكبر أنت بغيتي ، ونظر في حليته فوافقت ما عنده <sup>(١)</sup> هذه القصة نترك ما فيها كله ، ويبقى منها ما لا سبيل إلى تركه ، وهو استعداد الموحدين للفاطميين بسلاحهم ومقابلتهم بمثل دعوهم ، واستبطنهم لأسرار دعوتهم ، لينهضوا لها بما يجري في مجراها عن اعتقاد منهم أو عن سياسة وتديير .

وكل شيء يجري تفسيره بعد ذلك على أهون سبيل .  
فالعلوم التي كانت مقبولة عند دولة الموحدين قد تتناقض وتتنافر ، ولكنها تلتقي في مقصد واحد وهو لزومها في تلك المناجزة وتلك المناظرة .  
وبين الغزالي وابن خزم بون بعيد في التفكير ومذاهب النظر والمعرفة ، ولكنها يلتقيان في كراهة الباطنية ، فالغزالي يرد عليها ويفند أقوالها في الإمامة ، وابن خزم يدين بظاهر النصوص ويحرم التأويل مع وجود النص . والتأويل كما هو معلوم أصل من أصول الإسماعيلية ، يميزونه بل يوجبونه ويرجعون به إلى علم الإمام بأسرار الغيب وبواطن الآيات ، ويضيف ابن خزم إلى ذلك أنه كان شديد التعصب للأمويين ، ولم يكن يظهر هذا التعصب لغير الأخصاء ، ولكنه كان يظهر النقمة على الفاطميين الإسماعيليين ويؤلف كتابه عن جهمرة أنساب العرب <sup>(٢)</sup> فينكر انتسابهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ومن ثم إلى فاطمة الزهراء .

(١) «وفيات الأعيان» . الجزء الرابع . ترجمة رقم ٦٦٠

(٢) « جهمرة أنساب العرب » نشرته دار المعارف بمصر بتحقيق المستشرق ا . ل .

ولا يبعد أن يكون الخلفاء الموحدون مؤمنين بأسرار النجوم يبحثون عن الأفلاك والعقول التي تديرها لينفذوا منها إلى خفايا تلك الأسرار ، ويلفت النظر إلى هذا أول سؤال وجهه الخليفة المنصور إلى ابن رشد ، وهو : ماذا يقولون عن السماء ؟

\* \* \*

كانت دولة الموحدين أول دولة إفريقية تقف أمام الفاطميين موقف المناظرة في السياسة والثقافة . أما قبل ذلك فالدولة الصنهاجية في تونس كانت تتولى الأمر بإذن الفاطميين من القاهرة ، ودولة الملتشين أو المرابطين التي نازعتها السلطان في المغرب الأقصى لم تكن تدرس حين نشأتها شيئاً من الثقافة أو من الدين ، ومضى عليها زمن وهي مشغولة بحرب القبائل البربرية والسودانية التي بقيت على الجاهلية ، ولم يكده يستقر بها القرار على عهد يوسف بن تاشفين حتى شغلت بالجزيرة الأندلسية واستقدمها ملوك الطوائف إلى الأندلس لتجديدهم في حربهم مع ألفونس السادس ملك أرجوان ، وانصرفت جهودهم إلى هذه الناحية ، وظلوا كذلك على عهد علي بن يوسف بن تاشفين حتى زالت دولتهم ولما ينقض على وفاة هذا الأمير أكثر من سنتين ، وكان منهجهم في شؤون الثقافة منهج البداوة في استنكار كل ما يحسونه من البدع ، ومنه علم الكلام وبحوث الفقهاء في الحكمة الدينية ، ولهذا أحرقوا كتب الغزالي وهي من أفضل ما كتبه المتكلمون !

فالموحدون هم أول من ناظر الفاطميين ( أو الإسماعيليين ) في إفريقية الشمالية ، وأول من تعرف علومهم ومذاهبهم ليغلبهم في ميدانهم ويقابل دعوتهم بمثلها أو بما ينقضها ويبطلها .

\* \* \*

وما من حركة ثقافية في ذلك العصر يراد تفسيرها بمعزل عن هذا العامل المهم — عامل الدعوة الإسماعيلية — إلا تعذر التفسير أو وقع فيه الخطأ الكثير ، ومن هذا القبيل تلك المناقشات الطويلة حول مصدر الثقافة الإغريقية التي انتقلت من الشرق إلى أوربة أهو إسرائيل أو عربي ، وموضع اللبس هنا أن

الفيلسوف اليهودي ابن جبيرول (١٠٢١ - ١٠٧٠) سبق ابن رشد بمولده وكتابه ، ولكن ابن جبيرول لم يكن له مصدر غير المراجع العربية وفلسفته الأفلاطونية الحديثة مستمدة من هذه المراجع لم يسلم حتى من أخطائها الظاهرة وهي الخلط بين مذهب أفلوطين ومذهب أرسطو في الربوبية لأن طائفة من تواسع أفلوطين ترجمت في القرن الثالث للهجرة ونسبت خطأ إلى أرسطو باسم أثولوجية أرسطو طاليس ، وقد التبست آراء ابن جبيرول بالآراء الإسلامية والآراء المسيحية التي نقلت عنها حتى حسبه بعض الأوربيين من فلاسفة المسلمين وحسبه بعضهم من فلاسفة المسيحيين ، ولم تتضح الحقيقة إلا في القرن التاسع عشر حين كشف المستشرق الإسرائيلي سلمون مونك Salomon Munk (١٨٠٣ - ١٨٦٧)<sup>(١)</sup> عن بعض المخطوطات فتبين له أن الفيلسوف الذي يسميه الأوربيون أفيسبرون Avicébron هو نفسه ابن جبيرول ، وأنه إسرائيلي وليس من المسلمين ولا من المسيحيين .

وقد كان ابن جبيرول مسبقاً في الثقافة الإسرائيلية بفيلسوف آخر من اليهود نشأ في القيوم بمصر (٨٩٢ - ٩٤٢) وتنقل بين مصر وفلسطين والعراق في إبان الدعوة الإسماعيلية وملاحم الجدل بين المتكلمين والمعتزلة وهم فلاسفة الإسلام الباحثون في مسائل التوحيد والحكمة الدينية ، وهذا الفيلسوف الإسرائيلي هو سعديا بن يوسف الذي اشتهر باسم وظيفته جاعون (٨٩٢ - ٩٤٢) وتتبع مساجلات المتكلمين والمعتزلة فطبقتها على الديانة الإسرائيلية ، وألف كتابه « الإيمان والعقل » في موضوعات الخلق والتوحيد والوحي والقضاء والقدر والثواب والعقاب وغير ذلك من موضوعات علم الكلام .

وقد كان للفلسفة في المغرب رواد قبل ابن رشد أشهرهم ابن باجة أو ابن الصائغ الذي توفي سنة ٥٣٣ للهجرة إذ كان ابن رشد في الثالثة عشرة من عمره ، وابن باجة هو الذي يسميه الأوربيون Avinpace وهو أستاذ أبي الحسن علي بن عبد العزيز الذي رحل إلى مصر بعد موت أستاذه في مدينة فاس ونقل معه خلاصة من مؤلفاته إلى مدرسة قوص بالصعيد الأعلى حيث مات

(١) سلمون مونك فرنسي من أصل ألماني .

ودفن ، وقد كان ابن باجة على ديدن الكثيرين من علماء عصره جامعاً بين الأدب والفلسفة والطب ، وقيل إنه حسد الأطباء له ممن كانوا يزاحمونه في بلاط ابن تاشفين بمراكش أغراهم به فدسوا له عند الأمير ودسوا له السم في طعامه فمات ولم يكن يجاوز الأربعين ، ويعتبر ابن باجة بحق أول رائد لثقافة الإغريق في الأندلس ، فقد علق على كتب أرسطو وجالينوس ، وترجمت تعليقاته إلى العبرية ، وترجم إليها كتابه عن تدبير المتوحد وفيه يشرح سبيل الوصول إلى الله بالمعرفة والرياضة ويجمع بين أساليب الحكمة وأساليب التصوف ويقسم أساليب « التوحيد » الذي يعنى العزلة والتوحيد الذي يعنى وحدة الأشباه المشتركين في مطالب الحكمة والفضيلة .

أما بعد ابن باجة فأشهر الفلاسفة هما الزميلان ابن الطفيل وابن رشد ، وقد اجتمعا زمناً في بلاط الموحدين ، وكان ابن الطفيل أكبر من ابن رشد ولكنه عاش بعده ( توفي سنة ٥٨١ للهجرة ) ولم ينكب مثل نكبته ، بل قيل إنه كان يأخذ مرتبه مع الأطباء والمهندسين والرماة والشعراء ، ويقول كما جاء في كتاب « المعجب في أخبار المغرب » : لو نفق عليهم علم الموسيقى لأنفقته عليهم . . . !

### ٣ - الحركة الاجتماعية

وابن الطفيل هو صاحب قصة « حى بن يقظان » التي ترجمت إلى الإنجليزية في القرن السابع عشر ونسب إليها نشاط القصة في العصر الحديث ، وفحوى قصة حى بن يقظان أن الإنسان قد يصل إلى معرفة الله ولو نشأ منفرداً على جزيرة منعزلة لا يصحبه فيها أحد من بنى نوعه ، ويتمم رأيه في هذه القصة مذهبه في التصوف وإمكان الاتصال بالله وإدراك الحقائق الربانية برياضة النفس على الكشف والمناجاة<sup>(١)</sup> .

ويبدو من أخبار ابن الطفيل وآثاره - على قلة هذه وتلك - أنه كان إلى

(١) قصة « حى بن يقظان » عالجها ابن سينا والسهروردى وابن الطفيل والتقصص الثلاث

مجموعة في كتاب واحد نشرته دار المعارف بمصر بمناسبة مهرجان ابن سينا الذى عقد ببغداد في

مزاج الفنان الظريف أقرب منه إلى مزاج الفيلسوف الحكيم ، وأنه كان خيراً بفنون  
 المنادمة والمسامرة ، أثيراً عند أمير المؤمنين المنصور لا يطيق هذا غيابه ولا يزال  
 عنده أياماً منقطعاً عن أهله ، وكان هذا هو الغالب على حكماء ذلك العصر  
 وأطبائه ما عدا ابن رشد . فقد كان ابن باجة يحسن فن النغم والإيقاع وكان  
 ينظم الموشحات ويلحنها ويغنيها ، ومن موشحاته تلك الموشحة التي قيل إن صاحب  
 سرقسطه أقسم ساعة سماعها لا يمشين ناظمها ومنشدها إلا على الذهب ، وهي  
 التي ختمها بقوله :

عقد الله راية النصر لأمرير العلاء أبي بكر  
 ومن لباقتة وحسن تصرفه في إرضاء الأمراء أنه أشفق من مغبة هذا القسم  
 فاحتال على تنفيذه بأن جعل في نعله قطعة من الذهب (١) .  
 وكان ابن زهر زميل ابن رشد في الطب والحكمة أبرع أهل زمانه في فن  
 التوشيح وفن التلحين ، وله من الشعر الظريف ما يقل نظيره في بدائع الشعراء  
 المنقطعين للهو والمنادمة ، وهو صاحب الأبيات في المرأة :

إني نظرتُ إلى المرأة أسألها      فأنكرت مقلتاي كل ما رأنا  
 رأيت فيها شيئاً لست أعرفه      وكنت أعرف فيها قبل ذلك قتي (٢)  
 فقلت أين الذي بالأمس كان هنا      متى ترحل عن هذا المكان متى  
 فاستضحكت ثم قالت وهي معجبة      إن الذي أنكرته مقلتك أتي  
 كانت سليمي تنادي يا أخي وقد      صارت سليمي تنادي اليوم يا أبتنا

وله يتشوق إلى ولده بإشيلية ، وهو بمراكش :

ولي واحد مثل فرخ القطا      صغير تخلف قلبي لديه (٣)  
 وأفردت عنه فيا وحشتنا      لذلك الشخيص وذاك الوجيه (٤)  
 تشوقني وتشوقته      فيبكي عليّ وأبكي عليه  
 وقد تعب الشوق ما بيننا      فنه إلى ، ومني إليه

(١) شيخ : مصنف شيخ .

(٢) القطا جمع قطاة : طائر في حجم الحمام .

(٣) شخيص ورجيه : مصنف شخص ووجه .

(٤) مقدمة ابن خلدون . ص ٥٨٤ طبعة بيروت ١٩٠٠

روى أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني حكيم السلطان المنصور بالله الحسنى أن يعقوب المنصور سلطان المغرب والأندلس سمع هذه الأبيات فرقاً للحكيم الظريف وأرسل المهندسين إلى إشبيلية وأمرهم أن يرسموا بيت ابن زهر وبينوا له بيتاً مثله في مراكش ، ففعلوا كما أمرهم وفرشوا البيت بمثل فرشته وجعل فيها مثل آلاته ثم أمر بنقل أولاد ابن زهر وحشمه إلى تلف الدار ، ثم أخذه معه إليها فدخلها فوجد ولده الذى تشوقه يلعب في فنائها ، وخيل إليه أنه في منام .

وهذه فنون من المنادمة والتجيب إلى الأمراء لم يكن ابن رشد يحسن شيئاً منها ، ولعله كان أعلم أهل زمانه بالفلسفة والفقهاء وأجهلهم بفنون المنادمة والسياسة ، وراض نفسه على التوقر فبالغ في رياضتها وأنف أن يروى له شعر يتغزل فيه فأحرق ما نظمه في صباه ، وقد تقدم في تفضيله لقرطبة على إشبيلية أنه قال لابن زهر : إن المطرب الذى يموت في قرطبة تحمل آلاته إلى إشبيلية لتباع فيها ، وهو قول لا يخلو من التعريض والترفع ، غير ما نقل عنه كثيراً من سكينته وتورعه عن المزاح .

ومن المهم التنبيه إلى هذه الخصلة فيه وإلى مخالفته بها لنظرائه وأقرانه ، فلا شك أن جهله بفنون الندمان وجلساء الأسفار كان له شأن أى شأن فى تعجيل نكبته التى لا ترجع كلها إلى أحوال عصره ، ولا تخلو من رجعة فى بعض أسبابها على الأقل إلى أحواله .